الدرس الرابع: علاقة اللّفظ باللفظ(1): العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها

تمهيد: لقد كانت العلاقة بين اللفظ والمعنى محلّ اهتمام العلماء على اختلاف توجهاتهم؛ فلاسفة، ومتكلمون، وعلماء لغة، وبلاغيون، وعلماء أصول، ونقاد، وغيرهم. ذلك أنّهما الركنان الأساسيان في العلامة اللغوية. وقد اختلف هؤلاء في طبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى على رأيين مشهورين هما:

1-علاقة طبيعية:

يرى من ذهب هذا المذهب أنّ أصوات الكلمات محاكية لمعانيها، موحية بها، وممن قال بذلك من الفلاسفة القدامى سقراط وتلميذه أفلاطون؛ هذا الأخير الذي يرى أنّ اللغة نشأت محاكاة لأصوات مصادرها في الطبيعة كما سبق وذكرنا. وقد تبنّى بعض العرب هذا الرأي منهم:

1-1 سيبويه(180ه): الذي يقول: «من المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك: النزوان، والنقزان؛ وإنّما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع...ومثل هذا الغليان، لأنّه زعزعة وتحرّك. ومثله الغثيان، لأنّه تجيش نفس وتثور»

1-2 ابن جني(392ه): يعتبر ابن جني أشهر من صرّح بالمناسبة الطبيعية بين اللفظ والمعنى عند العرب؛ وبيّن رأيه في أكثر من موضع في كتابه الخصائص. من ذلك:

- باب في الاشتقاق الأكبر

- باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني

- باب في إمساس اللفاظ أشباه المعاني

2-علاقة اعتباطية:

يذهب هذا الفريق إلى أنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى لا تعدو أن تكون تواضعا واصطلاحا، أي: إنّ اللفظ لا يوحي بجرسه الصوتي بالمعنى، وإنّما الإنسان هو الذي أحدث هذه العلاقة بأن أطلق اسما معينا على المعنى، مع مراعاة الانسجام الصوتي بين أصوات الكلمة الواحدة. وقد تبنّى هذا الرأي أكثر العلماء على اختلاف توجّهاتهم. من هؤلاء أرسطو وغيره من الفلاسفة واللغويين القدامى؛ الغربيين والعرب، وأكثر المحدثين على هذا المذهب على رأسهم سوسير الذي صرّح بالعلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول مؤكدا أنّ التتابع الصوتي في الكلمة لا علاقة له بمعنى الكلمة.

إنّ الذي قاله سوسير يذكّرنا بقول ابن جني قبله بعدد من القرون «لو أنّ واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب لم كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد» ممّا يثبت دون شكّ أنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى حادثة وليست ذاتية طبيعية. أمّا عن الذين أصرّوا على على خلاف ذلك فهم لم ينتبهوا-كما قال إبراهيم أنيس-إلى «وجوب التفرقة بين الصلة الطبيعية الذاتية والصلة المكتسبة، ففي كثير من ألفاظ كلّ لغة نلحظ تلك الصلة بينها

وبين دلالاتها، ولكن هذه الصلة لم تنشأ مع تلك الألفاظ أو تولد بمولدها وإنّما اكتسبتها اكتسابا بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال» إذن ثمة فرق بين الصلة الطبيعية حيث يحيل اللفظ على المعنى من جرسه الصوتي دون حاجة إلى تفسير، وذلك غير متحقق إلّا في نماذج قليلة من الألفاظ، وبين الصلة العرفية التي تجعل اللفظ يحيل على المعنى لاتفاق بين أفراد الجماعة اللغوية.